

واستخدام الصورة المجازية قد يكون واعياً، فيحاول المتحدث أن يتحكم في الصورة المجازية، ولكن بدلاً من ذلك تهزمه الصورة، بل تفضحه، إذ إن منطقتها الداخلي قد يعبر عن عكس ما يرمي المتحدث إليه. ولنضرب مثلاً: استخدم الصحفي الأمريكي توماس فريدمان في حديثه عن العولمة صورتين مجازيتين للتعبير عن رؤيته للمجتمع التقليدي ومجتمع العولمة الحديث. فاستخدم صورة شجرة الزيتون ليرمز بها إلى المجتمع التقليدي (باعتبارها رمز الجذور الثقافية)، واستخدم صورة سيارة التويوتا المعروفة باللكزس ليرمز بها لمجتمع العولمة (باعتبارها رمز الحركة والتجديد المستمرين).

ويؤكد لنا فريدمان أنه يمكن الجمع بين الاثنين. ولكن منطق الصورة، إن أخضعناه للتحليل الدقيق، يقول غير ذلك. فشجرة الزيتون ثابتة، أما السيارة الللكزس فمتحركة، وشجرة الزيتون تم استيعابها في المجتمع الإنساني، فالإنسان هو الذي يزرعها ويرعاها ويستخدمها ويوظفها لصالحه، أي أنها اكتسبت بعداً إنسانياً من خلاله. أما السيارة الللكزس فلم يذكر فريدمان شيئاً عن الهدف من استخدامها، أو عن المكان الذي تتوجه إليه، فهي تشبه مفهوم التقدم الغربي، الذي لم يخبرنا أحد حتى الآن عن غايته أو هدفه. ويمكن أن نذكر في هذا السياق كيف حول المتفضون عام ١٩٨٧ شجرة الزيتون إلى رمز للحياة والهوية، فهي تمد الفلسطينيين بزيت الزيتون الذي يُعد مكوناً أساسياً لطعامهم، كما أنها - كما يقول المثل الشعبي الفلسطيني - يمكن للمرأة أن تتعري تحتها، أي أن الشجرة تستر الإنسان ولا تُعريه (كما تفعل منظومة الحداثة!).

وفي الكتاب نفسه الذي وردت فيه الصورتان السابقتان أشار توماس فريدمان إلى أنه «لم يحدث أن خاضت دولتان يوجد بهما مطاعم ماكدونالدز حرباً فيما بينهما». ويدلل على حجته بالإشارة إلى حالة الشرق الأوسط، «انظر إلى الشرق الأوسط: في إسرائيل الآن [توجد] محلات ماكدونالدز كوشير، وفي السعودية محلات ماكدونالدز تغلق خمس مرات في اليوم في أوقات صلاة المسلمين، ومصر